

This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقرارات الجامعة.

ويمنع منعاً باتاً نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الإلكتروني إلى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

الإسلام
البيهقي

السرد
في مقامات الهمذاني
أيمن بكر



البيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٨

رئيس مجلس الإدارة:
د. سمير سرحان

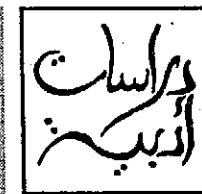
رئيس التحرير:
د. صلاح فضل

مدير التحرير:
محمد حسين عبد الحافظ

سكرتيرة التحرير:
عناف عبد المعطى

الإشراف الفنى:
صبرى عبدالواحد

تصميم الغلاف للفنان: سعيد المسايري



المقامة المضيرية :

المضيره . إن انتقال التبئير والرواية للإسكندرى قد تم فيما يظهر بمحض اختيار الجماعة ، رغم تحذير أبي الفتح لهم بقوله :
" قصتى معها أطول من مصيبي فيها . ولو حدثكم بها لسم آمن المقت
وإضاعة الوقت " ^(٢٩)

يبدأ الإسكندرى في رواية قصته مع التاجر الذي دعاه إلى مضيرة منذ أكثر من عامين ، ومن اللافت أن صاحب الدعوة بدا مصرا على دعوته، يقول الإسكندرى : "دعانى بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ولزمنى ملزمة الغريم . والكلب لأصحاب الرقيم . إلى أن أجبته إلى هنا " ^(٣٠) . من الواضح أن التاجر كان يسعى إلى أكثر من مجرد إطعام أبي الفتح ، ولعل ذلك ماجعل الأخير يتوجه من الدعوة فلا يستجيب لها مباشرة ، هنا يبدأ تحول كل من التبئير والرواية تدريجياً إلى التاجر ، غير أن هذا التحول لا يتم باختيار الطرفين كما حدث بين الجماعة وأبي الفتح ؛ إذ يبدو التاجر وقد اغتصب التبئير والرواية محققاً حالة من السيطرة على السرد تصل هذه السيطرة إلى ما يشبه الاستبعاد بالنسبة لأبي الفتح في نهاية المطاف .

في الطريق يأخذ التاجر في الحديث عن زوجته ، ثم عن الحى الذى يسكنه فالحديث عن داره ، يتم ذلك كله بصورة تصصيلية يتبادل فيها إيقاعاً الوقفة Pause والمشهد Scene الظهور ، بما يحقق إحساساً عميقاً بثرثرة التاجر الذى تقاد توقف حركة الأحداث . تلك الثرثرة التى تبدو استبداً ، هى ما حذر أبو الفتح جماعة عيسى منه قبل بدء حديثه . وفي الوقت نفسه يسرز الإيقاع وتغاذه حديث التاجر المازق الذى وقع فيه أبو الفتح رجل الفصاحه التى لا تسعفه للمفارقة فى هذا الموقف . تقول فدوی دوجلاس :

تبدأ المقامة المضيرية بوصف منجم لأبي الفتح الإسكندرى " رجل الفصاحه يدعوها فتجبيه . والبلاغة يأمرها فتطيعه " ^(٣١) ثم تشي بوصف المضيره التى يقول عيسى إنها "تنسى على الحضارة . وستدرج فى الفضارة . وتوئن بالسلامة . وتشهد لمعاوية رحمه الله بالإمامه " ^(٣٢) الجملة الأخيرة تفتح إمكانية للتأويل ، فالمضيره التى تبدو فاعلاً ذا ملامح إنسانية ^(٣٣) بإمكانها أن تصبح وسيلة لمنع البيعة لمعاوية ، الذى عرف عن مبادعيه أثناء حياة على بن أبي طالب أنهم " طلاب اللذائف وبغاة الشهوات " ^(٣٤) . يبدو أن هناك تلميحاً واضحاً لعلاقة السلطة السياسية الجائرة بالمحكومين ، بحيث تظهر كأنها علاقة سيطرة من خلال التحكم في الطعام ، بما قد يصل أحياناً إلى حد شراء الضمان ، هذه السيطرة قائمة فيما يبدو بسبب المضيره .

فى الدعوة التى حضرها عيسى وأبو الفتح ، يتم وصف المضيره مرتين ، مرة حال تقديمها وأخرى حال إبعادها نتيجة رد فعل الإسكندرى ، فى المرة الثانية يصف عيسى حدث "بعد المضيره بقوله" ورفقاها فارتقت معها القلوب . وسافرت خلفها العيون . وتحلبت لها الأفواه . وتلمظت لها الشفاه . واتقدت لها الأكباد . ومضى فى إثرها الفؤاد ^(٣٥) المقطع السابق يوضح بقعة عميق أثر المضيره فى أكليلها ، إذ تقاد تملك مجتمع نفوسهم ، غير أن رد فعل الإسكندرى قد أثار فضول الجماعة .

تسأل الجماعة أبي الفتح عن أمر المضيره ، وهنـا ينتقل التبئير والرواية كلـهما إلى الإسكندرى ، الذى يبدأ فى رواية قصـته مع

شخصيته اللزجة المستبدة؛ فهو احتيال يختلف أيمًا اختلاف عن احتيال الإسكندرى الذى يرتدى حلة من الظرف والفكاهة فى معظم المقامات.

يستمر التاجر فى ثرثرة المستبدة ، وعند لحظة معينة تجيش نفس الإسكندرى الذى يمد ثرثرة التاجر على استقامتها^(٢٥) ليصل فى النهاية إلى أن "هذا خطب يطم . وأمر لا يتم"^(٢٦) هنا يبدو الإسكندرى وقد شعر بطبيعة الثمن المدفوع فى مقابل المضيرة التى أصبح يشك فى حصوله عليها أصلًا ؛ إذ يمكن تصور الإسكندرى طوال حديث التاجر وقد تنازعته رغباتن ، الأولى فى الطعام ، والثانية فى التخلص من استبداد التاجر وسيطرته ، وفي اللحظة التى قام فيها الإسكندرى معتزما الهرب ، كان قد أصبح مفعما برغبته فى الحرية بعد أن وصل الأمر إلى ما يشبه الاستبعاد ، غير أن التاجر يصر على استمرار سيطرته واستبداده ، إذ يبدو أنه استشعر في طلب أبي الفتح قضاء حاجته نية الأخير في الهروب ، فينطلق التاجر لفوره في حديث مطول عن الكيف ، هذا الحديث ربما تعدى مجرد كونه ثرثرة عادية ، إنه يتضمن تهديدا صعبا للإسكندرى يقول التاجر: "يا مولاي ترى كنيفا ينذرى بيربيسى الأمير . وخريفى الوزير . قد جصص أعلاه . وصهرج أسفله وسطح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه . ينزل عن حانطه الفر فلا يطعق . ويعشى على أرضه الذباب فينزلق . عليه باب غير انه من خليطى ساج وعاج . مزدوجين أحسن ازدواج . يتمنى الضيف أن يأكل فيه"^(٢٧) لا يوجد في المشهد ضيف سوى الإسكندرى الذى فيما يبدو قد أدرك التهديد ، فقام لفوره معلنًا تمرده ، غير أن التاجر لا يستسلم بسهولة لأنفلات أبي الفتح من سيطرته ، فيعود وراءه مناديا عليه بقوله : "يا أبي الفتح المضيرة"^(٢٨) إن إضافة اسم أبي الفتح للمضيرة ربما أكد ما نذهب إليه ، من أن العامل الأساسى فى سيطرة التاجر على

"وتشخيص أبي الفتح وتمييزه بعبارات حتى ولو كانت قريبة من هذه العبارة يعتبر شيئاً نادرًا تماماً ... فالصورة التي ترخر بها هذه العبارة ، هي صورة تدل على القدرة فأبو الفتح يدعو الفصاحة ويأمر البلاغة ، فتجيبانه ... وهذه العلاقة بالتحديد هي التي تتقلب وتحول ، فليست الفصاحة والبلاغة فقط هما اللتان كانتا الوسيلة في خيبة أبي الفتح ، بل إننا نستطيع أن نقول ... إنه يدعوهما فلا تجيبانه ، ويأمرهما فلا تطيعانه".^(٢٩)

يبدو أبو الفتح أسيراً للتاجر الذي يحول الإسكندرى إلى مجرد مستقبل لحديثه المنطق بحرية شديدة ، تقوم حرية التاجر فيما يظهر على سلب حرية أبي الفتح . حرية التاجر لا تفصل عن رغبته في السيطرة والتحكم ، إذ يلزم لتحقيق تلك الحرية أن يسيطر تماماً على عقل أبي الفتح ، وينحكم بصورة شديدة في قدراته التي وصفه بها عيسى في أول المقامات . تتوافق تلك الرغبة في السيطرة مع وضع التاجر في مركز المقاومة على أكثر من مستوى ، فهو ينتزع التبئر والرواية ، وفي الوقت نفسه يتم رسم الفضاء بما يؤدي إلى وضع دار التاجر في المركز من أشرف أحيا بغداد ، التي - أي بغداد - ربما مثلت مركز الفضاء الكوني الذي تصوره المقامات .^(٣٠) يقول التاجر : "يا مولاي ترى هذه المحطة . هي أشرف محال بغداد يتنافس الأخيار في نزولها . ويتفاير الكبار في حلولها . ثم لا يسكنها غير التجار . وإنما المرء بالجار . ودارى في السلطة من قلادتها . والنقطة من دائتها".^(٣١)

على مستوى آخر يتم رسم صورة منفردة لشخصية التاجر ، إنه ليس فقط ثرثاراً مستبداً ، بل مستغل محظى ؛ يتضح ذلك من طريقة حصوله على الدار والعقد والمحصير^(٣٢) ، ومن الملحوظ أن احتيال التاجر قد اصطبغ بطبيعة

المقامة الحلوانية :

إذا كان الإبداع والمعرفة في مجال اللغة وفنونها يمنحان المبدع تقديرًا وسلطة اجتماعيين، في الفترة التي تمثل أفقاً حضارياً لمقامات الهمذاني، فإن أبي الفتح الإسكندرى يبدو على العكس من ذلك، إنه مهمش اجتماعياً على الرغم من قدرته الإبداعية والمعرفية التي تلخص المقامات في تأكيداتها. وربما كانت تلك المفارقة هي سر نقاء أبي الفتح الواضحة على الزمن وأهله؛ فهو يؤمن - وكذلك عيسى - بأن وضعيته السابقة هي من قبيل الخلل الذى أصاب المجتمع وفيمه.

في المقدمة العراقية يدور الحوار التالي بين عيسى والإسكندرى : " فقلت (أى عيسى) وما لك مع هذا الفضل . ترضى بهذا العيش الرزلى . فأنشأ يقول :

بؤسا لهذا الزمان من زمن كل تصاريف أمره عجب
أصبح حربا لكل ذوى أدب كلها ساء أ منه الأدب " (٤٢)

وفي المقدمة الحمدانية يدور الحوار التالي بينهما : " أنت (أى الإسكندرى) مع هذا الفضل تعرض وجهك لهذا البخل . فأنشأ يقول :

ساخت زمانك جدا إن الزمان سخيف
دع الحمية نسيا وعش بخير وريرف
وكل لعبدك هنا يجئنا برغيف " (٤٣)

الإسكندرى كان المضيرة ، أو لنقل الطيام الذى يتحكم فيه التاجر . يعلن التاجر سلاطه بذكر اسم المضيرة ، ويظنه الصبيان أن المضيرة لقب لأبى الفتح فيصيغون كلاماً يخاطب التاجر . المشهد السرى هنا يبدو صراعاً بين التاجر والصبيان من ناحية ، والإسكندرى من ناحية أخرى؛ يريد التاجر أن تستمر سيطرته ويريد الصبيان عن جهل ، في حين يرفض الإسكندرى هذه السيطرة لاجئاً في نهاية المطاف إلى العنف، لفك الحصار عن نفسه يقول : " فرمى أحدهم - أى الصبيان - بمجرد فرط الصخر . فلقى رجل الحجر بعمامته . ففاضت قمي خالسته . ففاضت من الشلال بما قدم وحدث . ومن الصفع بما طاب وخبيث . وهشمتة، إلى الحبس . ففاقت عاصين فى ذلك النحس " (٤٩).

إن عدم استسلام أبي الفتح لسيطرة التاجر قد أدى به إلى الضرب فالسجن لمدة عازفين . ويمكن اعتبار المضيرة سبباً في سلب حرية الإسكندرى لعاصين ، إذ تبقى المضيرة أداة فاعلة في استهلاك الناس واستعبادهم . ومن هنا يمكن أن يتماثل التاجر مع السلطة السياسية الجائرة التي تسلب الناس حريةهم وقدرتهم على الاختيار ، من خلال التحكم في الطعام أو الرزق ، بما يستدعي مثل معاوية الذي ضربه عيسى في بداية المقدمة . (٤٠)

في إطار أحداث المقدمة يبرز دور المروى عليه ، المتمثل في عيسى وجماعته ، في تأكيد التأويل السابق ، إنهم جماعة كادت أن تستسلم لسيطرة المضيرة لولا سبيحة أبي الفتح التي تمثل ما يشبه تبيتها مفاجئاً لهم . ويمكن تخيل رد فعل العروى عليهم وقد أخذ في التحول تدريجياً من الصد إلى الضد؛ وبعد أن كانت قلوبهم ترتفع مع ارتقاء المضيرة ، يحدث بالتدرج ما يشبه الوعى العميق ببعوقفهم حيالها، بما يؤدي إلى قبولهم عذر أبي الفتح بل إنهم ينذرون نذر في مقاطعة المضيرة ، مختتمين المقدمة بجملة لافتة تؤيد التأويل السابق حين يقولون : " قدّيما جنت المضيرة على الأحرار . وقدّمت الأحرار حمى الأخيار " (٤١).

عنها كعادته ليطرح فلسفته ، إنه يبدو في هذه المقامـة مجرد نموذج لأصحاب الفضل .

تبدأ المقامة بنزول عيسى بن هشام إلى بلدة حلوان وهو في طريق عودته من الحج، ونتيجة لطول شعره واتساع بدنه يطلب حماماً، ويحدد له مواصفات خاصة، فهو يريد الحمام "واسع الرقعة ، نظيف البقعة . طيب الهواء . معتدل الماء" (٤٧).

يعود الغلام الذى بعثه عيسى مبشرًا أيام بتحقق مطلبـه ، ثم يقود الغلام عيسى إلى حمام على النقيض مما وصف عيسى . إن غلام عيسى شخصية هامشية تتسبب فى افتتاح السرد على الأحداث التى تمثل صورة مجسدة للحمق . وهو يفتح الباب أيضا من خلال حماقته الخاصة .

تبدأ الأحداث بعد دخول عيسى الحمام يقول : " ودخل على إثري رجل وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبيني ووضعها على رأسي . ثم خرج ودخل آخر فجعل يلكلني ولما يك العظام . ويغمزني غمراً يهد الأوصال . ويصفر صفيرًا يرش البزاق . ثم عمد إلى رأسي بخصلة وإلى الماء يرسله . وما لبثت أن دخل الأولى فحيياً أخدع الثاني بمضمومة قعقت أنيابه وقال : يالقوع مالك ولهذا الرأس وهو لى . ثم عطف الثاني على الأولى بمجموعة هنكت حجابة وقال : بل هذا الرأس حق وملک وفی يدی . ثم تلاهما حتى عبيا . وتحاكما لما بقيا " (٤٨) .

في المشهد السايق هناك عدة ملاحظات :

إن النقمة المنصبة على سوء الزمان وأهله، واحتلال القيم والمعايير، وغياب العقل وسيادة الحمق، يمكن أن تردد إلى المؤلف الضمني الذي بث هذه المعانى على لسان بط勒ه، وأكدتها من خلال تعجب الرواوى لما نزل بأصحاب الفضل^(٤) ممثلين في البطل . ويبدو الحل الذى اختاره المؤلف الضمنى لغض الناقض بين ذوى الفضل والمجتمع الذى صار " حریاً لكل ذوى أدب " ، ممثلاً فى التحامق الذى يخلق اتفاقاً مع شفرة القيم السائدة. هذا الحل يدور كثيراً على لسان أبي الفتاح شعراً؛ يقول في المقاممة المكحوفية :

ويقول في الفردية :

"الذنب للأيام لا لليالي" فاعتبر على صرف الليالي
بالحمق أدرك المني ورفلت في حل الجمال "(٤٦)"

وتبدو المقامات الحلوانية كأنها تهدف إلى تصوير حمق الزمان وأهله تفصيلاً وبشكل مباشر، لذلك انصب التبيير فيها على شخصيات هامشية تعد هي المحرك الرئيس للأحداث، وهي في الوقت نفسه تمثل المجتمع الذي طالما سمعنا شكوكى أبي الفتح منه. ومن تاحية ثانية يبدو المبير - وإن كان داخلياً - وقد اكتفى برصد حركات وأقوال الشخصيات، بما يشى أن المؤلف الضمنى أراد أن يطرح تصوراته بدون وساطة تأويلية سواء من المبير الشخصية أو المبير الرواوى . في الوقت نفسه يتلمس الإسكندرى حالة من الجنون لا ينفصل

يأتي بعد ذلك ما دار بين العاملين وصاحب الحمام المنوط به أن يفصل بينهما ، ليؤكد التأويل السابق ، يقول عيسى "فأتي صاحب الحمام . فقال الأول : أنا صاحب هذا الرأس . لأنني لطخت جبينه . وروضت على طينه . وقال الثاني . بل أنا مالكه لأنني دللت حامله . وغمزت مفاصله . فقال الحمامي : انتوني بصاحب الرأس أسلنه . ألك هذا الرأس ألم له ." (٥٠) تبدو كلمات "أنا صاحب - أنا مالكه" مؤكدة لعلاقة الملكية ، ومن اللائق أن صاحب الحمام يؤكّد بسؤاله هذه الملكية ، كما أنه يؤكّد أيضاً الفصل الواضح في كلام العاملين بين الرأس وصاحبـه ، إنه يسأل عيسى بوصف الأخير مجرد شاهد بقوله : " يا رجل لا تقل غير الصدق . ولا تشهد بغير الحق . وقل لـى هذا الرأس لأـيهما " (٥١) .

وما حدث هو أن صياغة الخلاف بين الرجلين بالطريقة السابقة قد نبهت عيسى إلى طبيعة الخلاف ومنطقـه ، حيث ينحصر دور عيسى فيه عند حدود إعلان تبعيته لأحد المتخاصمين ، ولذلك أتى رد عيسى قاطعاً مليئاً بالدهشة " يا عافاك الله هذا رأسـي . قد صحنـى فـى الطـريق . وطـاف معـى بـابـيتـ العـقـيق . ما شـكـكتـ أـنـهـ لـى " (٥٢) عـيسـىـ أـيـضاـ يـفـصـلـ بـيـنـ رـأـسـهـ وـبـيـنـهـ وـلـكـ منـ بـابـ التـهـكـمـ ، إـذـ إـنـهـ يـرـفـضـ بـصـورـةـ جـادـةـ وـبـيـهـةـ مـنـطـقـ الخـلـافـ الدـائـرـ حـولـهـ . وـلـكـ ماـ قـالـهـ عـيسـىـ رـغـمـ بـداـهـتـهـ يـثـيرـ صـاحـبـ الـحـمـامـ الـذـيـ يـنـهـ عـيسـىـ وـكـانـهـ يـنـهـ مـخـبـولاـ ، بـلـ يـتـعـدـىـ ذـكـ إلىـ سـبـهـ وـتـحـقـيرـهـ ؛ يـقـولـ صـاحـبـ الـحـمـامـ بـعـدـ رـدـ عـيسـىـ " اـسـكـتـ يـاـ فـضـولـىـ . ثـمـ مـاـلـ إـلـىـ أـحـدـ الـخـصـمـيـنـ فـقـالـ : يـاـ هـذـاـ إـلـىـ كـمـ هـذـهـ مـسـافـةـ مـعـ النـاسـ . بـهـذـاـ الرـأـسـ . تـسـلـ عـنـ قـلـيلـ خـطـرـهـ . إـلـىـ لـعـنـةـ اللـهـ وـحرـ سـقـرـهـ . وـهـبـ أـنـ هـذـاـ الرـأـسـ لـيـسـ . وـأـنـ لـمـ نـرـ هـذـاـ التـيـسـ " (٥٣)

• أولاً: إن أبطال المشهد شخصيات هامشية بما يدعم ما نذهب إليه من أنها تمثل أنماطاً اجتماعية لا غير .

• ثانياً : إن الحركة تتم بطريقة مسرحية وبصمت تام ، باستثناء جملتين نطقهما العاملان ، بما يbedo معه المثير خارجياً تاركـاً النـطقـ بالـدـلـالـةـ للأحداث نفسها.

• ثالثاً: إن العامل الأول قد بدأ برأس عيسى ، وال伊拉克 بدأ حين وصل العامل الثاني لرأس عيسى . ولهذا دلالة مهمة فيما يحاوله هذا التأويل .

إن الصراع بين العاملين يbedo كأنه صراع حـيـاةـ أوـ مـوـتـ ، فـالـمعـنىـ المباشرـ لـقولـهـ تحـاكـمـاـ لـمـ بـقـياـ كـمـ يـوـضـعـ الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ أـنـهـ " كـانـ فـيـ الـظـنـ أـنـ يـمـوتـ كـلـ مـنـهـمـ غـيـرـ أـنـهـمـ لـمـ بـقـياـ بـحـكـمـ الـأـجـلـ الـمـحـتـومـ وـلـمـ يـمـوتـ لـذـكـ الـتـلـامـنـ تـحـاكـمـاـ عـنـدـ مـاـ يـرـونـهـ أـهـلـاـ لـلـحـكـمـ بـيـنـهـمـ وـهـوـ صـاحـبـ الـحـمـامـ " (٤٩) ليس من الطبيعي أن يصل الصراع بين عاملين في حـامـ حولـ أحدـ روـادـهـ إـلـىـ حدـ أـنـ يـتـهـدـهـاـ الـمـوـتـ ، إنـ الـحـدـثـ يـبـدوـ مـتـعـدـيـاـ الـخـلـافـ الـعـادـيـ بـيـنـ عـامـلـيـنـ ، إـنـهـ يـعـبرـ بـصـورـةـ مـبـالـغـ فـيـ رـسـمـهـ عـنـ مـدـىـ الـحـمـقـ الـذـيـ يـمـارـسـ الـعـامـلـيـنـ . وـمـنـ نـاحـيـةـ ثـانـيـةـ يـحـدـدـ الـصـرـاعـ حـولـ الرـأـسـ بـوـصـفـهـ صـرـاعـ سـيـادـةـ بـيـنـ قـوـتـيـنـ تـهـدـفـ كـلـ مـنـهـمـ إـلـىـ تـأـكـيدـ تـبـعـيـةـ هـذـاـ الرـأـسـ لـهـ . يـصـبـحـ مـنـ الـمـكـنـ إـذـاـ مـاـ تـأـكـدـ هـذـاـ التـأـوـيلـ أـنـ نـعـتـيـرـ الرـأـسـ هـنـاـ رـمـزاـ لـلـعـقـلـ .

تؤكـدـ المـلاـحظـةـ الثـالـثـةـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ ، كـماـ تـأـكـدـ أـيـضاـ مـنـ خـلـالـ الـحـوارـ بـيـنـ الـعـامـلـيـنـ ، حـيثـ يـتـضـعـ فـيـ هـذـاـ الـحـوارـ أـنـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـعـامـلـيـنـ وـرـأـسـ عـيسـىـ ، تـتـعـدـيـ مـجـدـ الـقـيـامـ بـغـسلـهـ ، إـنـهـاـ تـبـدوـ عـلـاقـةـ مـلـكـيـةـ وـاستـحـواـذـ وـلـنـلـاحـظـ الـأـفـاظـ "ـ هـوـ لـىـ -ـ حـقـىـ -ـ مـلـكـىـ -ـ فـيـ يـدـىـ " .